PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(12): 991-1004
ISSN: 1553-6939

The problem of vital thought and its relationship to politics in the philosophy of Michel Foucault

Dr. Riad TAHIR[1], Dr. Djamal AHMIDATOU[2]

[1]Lecturer "A", University Kasdi Merbah of Ouargla (Algeria), E-mail: tahir.riad@univ-ouargla.dz
[2]University Kasdi Merbah of Ouargla, (Algeria), E-mail: ahmidatou.djamal@univ-ouargla.dz

Received: 10/2024, Published: 12/2024

Abstract:

Through this research paper, we are trying to clarify the foundations of the existing relationship between biological thought and politics in the style of Michel Foucault, with the aim of confirming the presence of power in new forms that appear more hidden than they were previously. From there, institutional work has become another face of power accepted by individuals and society. While achieving their own goals and interests, the main problem of this article revolves around the problem of the existing relationship between power as a political entity and its relationship with the vital thought of Michel Foucault.

Keywords: Power, politics, vital thought, life, secularism, state, knowledge.

إشكالية الفكر الحيوي وعلاقته بالسياسة في فلسفة ميشال فوكو

د. رياض طاهير[1]، د. جمال أحميداتو[2]

[1]أستاذ محاضر "أ"، جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، البريد الإلكتروني: tahir.riad@univ-ouargla.dz
[2]جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)، البريد الإلكتروني: ahmidatou.djamal@univ-ouargla.dz

الملخص:

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نبين أسس العلاقة القائمة بين الفكر الحيوي والسياسة في نسق ميشال فوكو، وذلك قصد تأكيد حضور السلطة وبصور جديدة تبدوا أكثر إخفاء مما كانت عليه سابقاً، ومن ثمة صار العمل المؤسساتي وجهًا آخر للسلطة مقبول من طرف الأفراد والمجتمع، من خلال تحقيقه لهم مآربه ومصالحهم الخاصة، والإشكالية الرئيسية لهذا المقال تتمحور حول إشكالية العلاقة القائمة بين السلطة ككيان سياسي وعلاقتها بالفكر الحيوي عند ميشال فوكو.

الكلمات المفتاحية: سلطة، سياسة، فكر حيوي، الحياة، العلمانية، الدولة، المعرفة.

مقدمة:

يعتبر الفكر الحيوي قديمًا قدم الإنسان، ويمكن الرجوع فيه إلى الفترة اليونانية، حيث كان أبيقراط من الفلاسفة الأوائل الذين نظّروا للفكر الحيوي من خلال إشارته الأساسية لطبيعة الأمراض وطرق علاجها، كما اشتهر أيضا بقسمه الطبي، وتوالت تاريخيًا تطورات الفكر الحيوي،

عبر مراحل تاريخية وفكرية مختلفة، إلى أن جاء الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو Michel Faucault (1926–1984)، الذي اهتم بهذا النوع من الفكر، محاولا تخصيص مجال واسع للحديث عنه من خلال كتبه الرئيسية، لمعرفة أسسه وخصائصه الفكرية، ومن ثمة شكلت الظاهرة الحيوية بعدًا أساسيًا في فلسفته (اللغة–العمل–البيولوجيا)، و حاول دراسة الظاهرة الحيوية وربطها بفكرة التاريخ قصد التعرف على كيفية ارتباط الظاهرة الحيوية بالسلطة، فمن الناحية الأركيولوجية، يرى ميشال فوكو أنه لا يمكن بحال من الأحوال فهم أي ظاهرة إلا من خلال الرجوع إلى أصلها التاريخي، ويستشهد على ذلك في الكثير من نصوصه الفلسفية على الارتباط الوثيق بين الظاهرة الحيوية والسياسة، وما ينتج عن ذلك من أشكال مختلفة للسلطة وتقنياتها الجديدة، ولهذا عمدنا في بحثنا هذا إلى محاولة الإجابة على الإشكالية الآتية:

كيف ربط فوكو بين الفكر الحيوي والسلطة؟ وبصيغة أخرى: ما هي أسس ومبادئ ومنطلقات الفكر الحيوي عند ميشال فوكو؟

1_ السلطة ومطلب الحق في الحياة:

يصرح فوكو من خلال العودة إلى المجتمعات القديمة في كتابه "يجب الدفاع عن المجتمع" أنه:" ليس من الظواهر الطبيعية المباشرة و الأصلية(...) أننا نجد للعاهل الحق في الحياة و الموت على الرغبة وفقا للقانون، وعليه فإن حياة و موت الرعية لا يصبحان حق إلا بإرادة العاهل"[1]

ما يعكسه هذا النص هو أن الحياة كمفهوم حيوي كان مرتبط بشروط سلطوية متجدرة في التاريخ، تعود إلى أن الحق في التحكم فيها وتسييرها من حق العاهل أو الحاكم، فكل ما يتعلق بمسار حياتهم حق له دون غيره، ولعل فوكو من خلال حفرياته أراد تجاوز هذا المفهوم، لأنه مع المجتمع الحديث ظهرت إبستيمية جديدة تتمثل في ظهور السلطة الحيوية المتمثلة في سلطة

[1]– ميشال فوكو، يجب **الدفاع عن المجتمع**، تر، الزواوي بغورة، (ط1، بيروت، دار الطليعة، 2003)، ص 234.

الأحياء التي جعلت الدولة تعطي لنفسها حق التدخل في شؤون الحياة الإنسانية على حد قول فوكو:" لتتدخل في الحياة و طريقتها و مستواها و التحكم في الأعراض و الحوادث والنقائص"[1].

فالدولة لها إستراتيجيات لإعطاء حق الحياة، فهي تحاول الاشتغال على الجسد، تراقبه وتروضه وتحاول ضبطه، من أجل غاية أساسية وهي تجنب الموت الذي يهدد البشرية من خلال الحد من الأمراض القاتلة، وفي الوقت نفسه التحكم في نسبة الولادات، وفي هذا الصدد يقول فوكو: " هذه الظواهر كالولادة ومعدل الخصوبة والإنجاب والأمراض، تهدد بشكل مباشر الإنتاج وانخفاض وقت العمل، وتدني الطاقة، وارتفاع التكلفة الاقتصادية، إنها تتسبب في نقص الإنتاج والعلاج المُكلف".

نفهم من خلال هذا النص؛ أن الحياة بما تحمله من معاني وكذا الظاهرة السكانية أصبحتا منذ القرن الثامن عشر (18م) محاصرتين من قبل الاقتصاد الليبرالي الذي يعتبر الفرد العامل أداة عمل كلما تعرضت للمرض أنعكس ذلك سلبا على أرباح المؤسسة الاقتصادية وإنتاجها وسيرها، هذا ما يؤكده فوكو في كتابه" ميلاد العيادة " من خلال قوله : " فالمريض يوضع داخل المستشفى ويصبح حملا مزدوجا... هذا الحمل ينعكس سلبيا على الدولة التي تصبح ملزمة بتوفير العلاج ومكان العلاج كالمستشفيات وأداة العلاج ووسائله كالطبيب والأدوية"[2].

ولعل هذا النص يحمل منعطفا فوكويا يؤكد على ضرورة الاستثمار في فكرة تحول السلطة من المجال السياسي إلى المجال المعرفي و المؤسساتي و الجسدي على اعتبار أن غاية السلطة هي أن تكون منتجة ومتحكمة في آن واحد، من خلال تجاوز المفهوم التقليدي للسلطة الذي يركّز على أنها جملة من القوانين والهياكل حسب المنظور الماركسي، ولكن فوكو يعتبرها سلطة أتخذت منعرجا جديدا أو ما قد نسميه بدائل جديدة تكون أكثر إخفاء و مجهرية ومتعددة الأوجه أو لا مرئي على حد تعبير فوكو، ولكن ليس المقصود به الفرد الفاقد للأثر في المجتمع، وإنما يقصد به الدولة التي تغيب صورتها الواضحة وتدخلها المباشر عن طريق الوسائل التقليدية كالإقصاء والنفي

[1] ميشال فوكو، يجب **الدفاع عن المجتمع**، مصدر سابق، ص ص 223، 240.

[2] M. Foucault, **naissance de la clinique** ,cérés édition, Tunisie, 1995, P, 24

والإبعاد... الخ وهذا ما سيفتح الباب للاستغلال الأيديولوجي للطب من أجل المحافظة على بقاء السلطة و استمرارها.

من خلال المعرفة الطبية و مؤسساتها المسئولة عنها، وكذا القائمين على الشأن الطبي، سيصبح الأمر أكثر وضوحا عندما نتحدث عن علاقة الطب بالسلطة، ومن هنا سيبدأ مع القرن الثامن عشر (18م) يلوحُ عصر جديد حسب فوكو ونفهم ذلك من خلال قوله: "إن سلطان الموت القديم، حيث كانت تتجسد السلطة المطلقة محجوب الآن بعناية وبإرادة الأجساد والتنظيم الحسابي، لقد حصل في غضون العصر الكلاسيكي نمو سريع للأنظمة المختلفة_ المدارس، المعاهد، الثكنات والمشاغل، كما ظهرت أيضا في مجال الممارسات السياسية والمراقبات الاقتصادية مشكلات الولادات، والتعمير، والصحة العامة، والسكن، والهجرة، لقد انتشرت إذا تقنيات متنوعة ومتعددة لإخضاع الأجساد وتحديد السكان. هكذا بدأ عصر السلطة البيولوجية"[1].

ومن هذا النص ندرك أن وظائف الدولة ونظرتها للهيمنة بدأت تتغير، وهذا التغير أكيد لصالح الدولة للحفاظ على مصالحها الإستراتيجية، حيث صار خطاب السلطة مرتبطا بالمرض من أجل التحكم في الحقل الاستشفائي، وخلق ظروف جديدة تحيط بالمرض من أجل الوصول إلى تعريف جديد لوضع المرض، وهذا ما جعل السلطة أيضا تقوم بإعادة تنظيم إبستيمولوجية المرض من أجل إعطاء انطباع إيجابي عن مهام الدولة، بحيث يعتقد المواطن أو مجموع السكان، أن الدولة أنشأت مجموع المؤسسات بما فيها المستشفيات من أجل راحة المواطن وتقديم الخدمات الضرورية له حسب ما يسميه فوكو" فكرة الوضوح الذاتي"[2].

وهذا ما دفع فوكو من خلال دروس (كوليج دي فرانس) "يجب الدفاع عن المجتمع" بالاهتمام بأسئلة الأمن، والسكان، والرفاه، والحروب في نوع من العقلانية السياسية لكشف ألاعيب

[1]– ميشال فوكو، **إرادة المعرفة**، تر، مطاوع الصفدي، جورج أبي صالح، (د.ط، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990)، ص142.

[2]– ميشال فوكو ونعوم تشومسكي، **عن الطبيعة الإنسانية، مناظرة حول الطبيعة البشرية**، تر: أمير زكي، (ط1؛ القاهرة: دار التنوير للنشر والتوزيع، 2015)، ص 15.

السلطة وخروقاتها، وأن الإنسان يبقى مخدوع تحت فكرة الوضوح الذاتي التي تجعله يدرك الأشياء خلاف ما خطط لها وبعيدا عن أهدافها الحقيقية.

وهذا بخلاف ما ذهب إليه الدكتور "عبد الله السيد ولد أباه" على أن فوكو يعلن بصريح القول:" أن اشكاليته لم تكن أبدا السلطة وما تحمله من إكراه، بل ظلت اليوم البحث في الذات سواء من خلال تشكلها وحضورها في الحقل المعرفي، أو عبر تكونها و نشأتها في إستراتيجيات السلطة، أو أخيرا من خلال تقنياتها الداخلية وعلاقتها بنفسها في ممارسة الرغبة والجنس"[1]

قبل أن نقف على محتوى هذا النص؛ الذي يؤكد من خلاله السيد ولد أباه على أن فوكو لم يعد اهتمامه بالسلطة يشكل عملا أساسيا في فلسفته وإن حجية هذا الحكم ضعيفة لغياب النص الذي يؤكد ذلك، عكس ما ذهب إليه الأستاذ آرثر دبليو فرانك في قوله:" وأصر فوكو على أن هذه الممارسات كلها تمارس دائما في السلطة ومهما كان السؤال بالنسبة له فإن الإجابة كانت السلطة"[2]

يبدو من خلال النصين المتعارضين حول فكرة السلطة عند فوكو يدفعنا بضرورة الرجوع إلى نص فوكو في حد ذاته وفي قوله: "... وعلينا التفكير بأننا، ذات يوم، لن نفهم ربما، في اقتصاد أخر للأجساد والملذات، كيف نجحت حيل الجنسانية، والسلطة التي تدعم جاهزيتها، في إخضاعنا لسلطان الجنس الصارم إلى حد أننا تكرسنا للمهمة اللامحدودة القاضية باقتحام خباياه و وانتزاع أهم الاعترافات من خضم هذه الظلمات، ومن سخرية هذه الجاهزية: إنها تجعلنا نعتقد أن الأمر يتعلق بتحررنا"[3].

من خلال هذا النص؛ يؤكد فوكو على أن فكرة الإخضاع التي تقوم بها السلطة والتي يبدو أن حضورها دائم في جميع نواحي الحياة اقتصادية كانت أم متعلقة بالأجساد إلى درجة بأننا

[1]– عبد الله السيد ولد أباه، **التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو**، (ط1؛ بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1994)، ص 11.

[2] - Arterw Frank et Teresjones, journal of Medical Humanties, Vol,24 Nos ,314, Winter 2005, P179.

[3]–ميشال فوكو، **إرادة المعرفة**، مصدر سابق، ص159.

أحرار، في الوقت الذي تكون فيه السلطة هي الموجه لسلوكاتنا وحركاتنا داخل المجتمع، مما يجعلنا نعتقد أن فوكو لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتخلى عن موضوع السلطة ولكن قد يلج إليه وفق بدائل جديدة لا يكون فيها ظهور السلطة صريحًا وواضحًا.

2_ السياسة والطب:

إن مفهوم السلطة عند فوكو يأخذ أشكالاً متعددة ومنها السلطة الطبية التي ترتبط بالمعرفة الطبية ويعمل الأطباء عليها، كما يمكن أن ننطلق في حديثنا هنا عن علاقة الطب بالسلطة عند فوكو من خلال قوله:" في القرن الثامن عشر كان الفعل الأساسي للمعرفة الطبية هو رسم خريطة يتم فيها وضع أحد الأعراض الخاصة بكل مرض، ثم وضع المرض في مجموعة محددة، وهذه المجموعة في خطة عامة للعالم المرضي"[1].

ونفهم من هذا النص أن المعرفة الطبية أصبحت خاضعة للتدخل المباشر للسلطة التي أصبح تنظيم وتوجيه هذه المعرفة من مهامها الأساسية، لذلك ينطلق فوكو من مفهوم المعاينة الطبية السريرية التي يقصد بها نظرة طبية فاحصة أو متفحصة ليشير إلى لا إنسانية العملية الطبية المتمثلة في الفصل بين جسد المريض و شخصه (هويته)، ومنه فإن استخدام مصطلح المعاينة في الحقل الجينيالوجي سمح بتأسيس حقل معرفي عن الجسد من خلاله تمكّن فوكو من الإشارة إلى أن البنى المادية الجسدية والبنى الفكرية المعنوية التي تسمح بتحليل الجسد مزجت بالمصالح السلطوية، لأنه بدخول الجسد البشري حقل المعرفة، دخل مباشرة في حقل السلطة وصار بالتالي هدفًا محتملا للاستغلال و التلاعب[2].

مما سبق يمكن معرفة انشغالات فوكو العديدة بالجسد وكذا كيفية التأسيس للتدخل السياسي في تدبير الصحة، ثم محاولات الدولة في إصلاح البنية الطبية، وكذلك كيف حاولت الدولة إصلاح البنية الطبية، ثم كيف حاولت الدولة تحديث المجتمع من خلال الطب وربما

[1] - Michel Faucoult , La naissance de la clinique, Opcit P. 29 .

[2]–ميشال فوكو، **ولادة الطب السريري**، تر، إياس حسن، (ط1؛ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، ص07.

تحديث نفسها من خلال علمنة الصحة وإقصاء الكنيسة من تدبير المجال الصحي، والتدخل في عملية العلاج واستبعاد العمق الديني للمعالج.

أ_ التدخل السياسي في شؤون الصحة:

عندما حاول فوكو تحليل نمو الجسد المنضبط والوديع تبعا للممارسات العقابية المسلطة عليه، وكذلك في دراسة تاريخ الجنس، كشف أن الجسد أصبح مادة للصراع السياسي يمارس من خلال معرفة طبية محددة، ولعل فوكو يريد التأسيس للتدخل السياسي لتدبير شؤون الصحة والمرض من خلال أنظمة ومؤسسات طبية تعتني وتسير كل الجوانب الخاصة بالوجود الصحي للناس، بحيث يعتقد فوكو أن التحول الأساسي للصحة من حيث القيمة السياسية لها داخل المجتمعات، حيث انتقلت الصحة من شأن فردي خاص إلى شأن سياسي عام، عكس ما كانت عليه في العصور القديمة، بعد أن كان المريض يجد في العائلة مكانه الطبيعي للعلاج بعيد عن أي مؤسسة أخرى كالمستشفيات وغيرها، ويقول فوكو في هذا المقام: " منذ القرن الثامن عشر والطب يسعى إلى إخبارنا عن معرفته الخاصة بأن سرير المريض هو دائما المكان الثابت للتجارب متعارضا مع النظريات والطرق التي تتغير باستمرار والتي تتستر بالتكهنات الدائمة للدليل الطبي"[1]؛ أي أن هذه الفترة عرفت تحولًا جوهريًا مع التجربة السريرية التي صارت ممكنة باعتبارها شكلا للمعرفة يعمل على إعادة تنظيم الحقل الإستشفائي.

والمعرفة الطبية بالنسبة لفوكو مفهوم مهم عبر التاريخ، وعمل فوكو كان مؤثرا بشكل خاص في الطريقة التي ربط بها المعرفة الطبية بأنظمة ثقافية وسياسية واقتصادية أوسع، لأن هذه المعرفة لم تكن مجرد أداة لتوفير العلاج للمريض، ولكن يمكن استخدامها أيضا لممارسة القوة والسيطرة على الأفراد، وهذا ما يساهم في ظهور نظام طبي هرمي وقمعي، ويقود حتما في نظر فوكو إلى التركيز على الطريقة التي يتم بها استخدام المعرفة الطبية لإنشاء وفرض أعراف اجتماعية من جهة، وتصنيف الأفراد من جهة أخرى، وهذا ما يؤدي بالسلطة إلى استخدام المعرفة

[1]- Michel Foucault, **Naissance de La clinique**, Opcit .p52.

الطبية كنظام للوقاية، حيث يكون همها هو إملاء شروط الرعاية الصحية على المريض أثناء العلاج.

ولكن يجب الإشارة إلى أن فوكو عندما يتحدث عن العيادة، فإنه يفكر في كل من الطب السريري والمستشفى التعليمي، لذلك فمفهوم العيادة يستعمله من يرغب في وحدة المفهوم[1].

ولهذا صار المستشفى بوصفه صرحا جديدا يمكن أن تتدخل الدولة من خلاله عن طريق الطب في إعادة التوازن لجسم المريض وإعادة الحياة إليه بعد الشفاء، وهكذا صار الطب يحمل خصائص الدولة من المؤسسات ونظام ومراقبة وترتيب وعنف.. الخ لتختفي السلطة التي كانت تبدوا ظاهر للعيان وتتصرف إلى المؤسسات بأشكال جديدة.

ب- **إصلاح البيئة الطبية:**

حسب ميشيل فوكو، عملت الدولة منذ نهاية القرن الثامن عشر (18م) على إصلاح البنية الطبية من خلال تشكيل إدارة مركزية تدير شؤون المرض الخاصة بالعلاج وإنشاء مؤسسات لإيواء المرض مع إصدار القوانين التأسيسية والتنظيمية وتقنين الممارسة الطبية، حيث يقول فوكو وهو يتكلم عن التجربة السريرية: ".. وكل الثورات الطبية حدثت تحت تأثير التجربة التي تعد الأصل الأول والمعيار الثالث ..."[2].

وأصبح بذلك العلاج ومتابعة المرض شأن من شؤون الدولة، تحت مسمى السلطة الحيوية Biopouvoir

ج- **علمنة الصحة وإقصاء الكنيسة:**

من خلال دروس في الكوليج دي فرانس مابين 1972-1973 م بخصوص المجتمع التأديبي يقول: "... أن المجتمع الأوروبي الذي أحل الدولة محل الدين يعطي أول مثال عن حضارة الحراسة".[3]

[1] Ibid, p07.
[2] Ibid.p57.
[3]-ميشال فوكو، **دروس ميشال فوكو**، تر: محمد ميلاد، (ط1؛ المغرب: دار توبقال للنشر،1988)، ص26

أي أن كل شيء تحت رقابة الدولة، وبذلك أصبحت العيادة في فهم فوكو منذ القرن الثامن عشر (18م) نظام أمبيريقي جديد يقوم على اكتشاف جديد في بنية المعرفة وهذا يعني أن الطب الحديث ليس مجرد فهم طبيعة الجسد والمرض بالتدريج، وهذا ما جعل فوكو يقترح نظرة إلى تاريخ الطب، وتاريخ الطب السريري أو العيادي خصوصا على أنه قطيعة معرفية وليس نتيجة لأعمال أفراد عظماء يكتشفون طرائق جديدة في رؤية الحقيقة ومعرفتها.

يقول فوكو في كتابه "ولادة الطب السريري" :" أن السريريات قبل أن تصبح معرفة، كانت صلة عمومية بين الإنسانية ونفسها، إنه عصر من السعادة المطلقة بالنسبة إلى الطب، لكن التقهقر حصل بمجرد دخول الكتابة والسرية، بمعنى استئثار فئة مختارة بهذه المعرفة .."[1]

والنص يحمل إشارة واضحة إلى أن المعرفة الطبية هي في حد ذاتها صارت سلطة، بحكم استئثار هذه الفئة المختارة، بعد أن كان الطب الإغريقي من القرن الخامس قبل الميلاد (5ق.م) يعتمد على معارف حالية من المعاينة، هذه المعارف وراء جميع الأوهام لأنها لا ترى وذلك ما جعل الطب مسكون بالميتافيزيقا عند تخلي أنذاك أبيقراط عن المشاهدة أو الملاحظة وتم اعتماد الفلسفة في معرفته الطبية كما في كتاب " ولادة الطب السريري"، حيث كان للطب تاريخ طويل عرف تقويضات كثيرة نتجت عنها تطورات في المعارف الطبية متجاوزة المنظومات التقليدية، ولهذا فإن العيادة تدين بأهميتها الحقيقية إلى كونها عملية إعادة تنظيم في العمق ليس للخطاب الطبي فحسب، وإنما أيضا لإمكان ذاتها بوجود خطاب عن المرض، فالاتصال بين الطبيب والمريض لا يوجد مسبقا قبل الخطاب، والعلاقة بين الذات والموضوع ليست مجرد علاقة بين من يعرف ومن يحكي، حيث صار العلم السريري للطب جزء من بنية أوسع لتنظيم المعرفة، سمحت بتمفصل الطب كفرع علمي مستقل، وهنا ظهر الطب كحقل تجريبي، وأصبحت المعرفة الطبية تخضع وتمارس ضمن ما نسميه التنظيم المعاصر للمعرفة من خلال عمليات الاستقصاء Investigation، والتشخيصdiagnostic، والعلاج Traitement، كل هذه العمليات ارتبطت بعملية التنظيم جاعلة من المعيار الذي يميز عضوا مريضا من عضو صحي معيارًا تاريخيًا.

[1]– ميشال فوكو، **ولادة الطب السريري**، مصدر سابق، ص 90.

وكما جاء في كتابه "ولادة الطب السريري" في مادة Abus في قاموس الطب، يضفي " فيك دازير vicg d'azyr " على تنظيم التعليم في بيئة المستشفى قيمة هي بمثابة الحل العام لمشكلات التدريب الطبي، وهنا يمكن الإصلاح الكبير بالنسبة إليه الذي يجب إتمامه، إذ يقول: " تقدم الأمراض والموت دروسا مهمة في المستشفيات. فهلا أفدنا منها؟ وهلا سردنا قصة الأدواء التي تصيب هناك عددا كبيرا من الضحايا؟ وهلا أقمنا فيها كرسيا للطب السريري؟ "[1] .

بمعنى أن الطب السريري، يعتبر أداة من أدوات الإصلاح التعليمي التي تساهم في إعادة تنظيم المعرفة الطبية بشكل كبير وإقامة أشكال للتجربة حول سرير المرض في إطار معرفة المرض بالذات ليبقى السرير وحده كما يقول فوكو يسعه:" تجديد معابد أبولو إسكولاب عند الحديثين"[2].

وفي النص تأكيد على تجاوز النص للأطر القديمة التي ظهرت فيها المعرفة الطبية، حيث صار المستشفى مكان لمزاولة الدراسة وإقامة التجارب السريرية من حول سرير المريض للوقوف على حقيقة المرض، والتحكم في العلاج أكثر، ونحن نقترب أكثر من سير الطب نحو فكرة الهيمنة على المريض ليصبح هو الأخر سلطة قائمة بذاتها.

3- الطب والصحة:

عاش الطب الغربي مجموعة من التحديات أمام الأوبئة وبعض الأمراض المستعصية، مما أدى إلى قفزات هائلة في هذا المجال، ويعتبر باستور Louis Pasteur(1822-1895) أستاذ متعدد الاختصاصات، ورائدا في التكنولوجيات الحيوية بسبب التقنيات التي استخدمها في تعديل المنظومات الجرثومية[3].

[1]- ميشال فوكو، **ولادة الطب السريري**، مصدر سابق، ص 103

[2]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- كلود دوبرو، **الممكن والتكنولوجيات الحيوية**، تر ميشال يوسف، (ط1؛ بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،2007)، ص217.

وهذا ما أدى إلى تطور كبير ومستمر في علم الوبائيات أو علم الباثولوجيا (علم الأمراض) أو علم المناعة والأدوية، ما جعل العالم الغربي في مكان أكثر أمانا، وأكثر من هذا عاملا مهما في تحسين صحة السكان، حيث يستفيدوا من ثمار هذا التقدم العلمي في الطب، لأن المرض كان من المشاكل الكبرى التي يجب على الغرب التغلب عليها.

وحتى نتشه Nietzsche (1844–1900)، كان ينظر للمرض كتجربة من خلال معاناته على أنه: " مثير قوي للحياة والخصوبة وامتلائها، فهو وسيلة لاكتشاف الحياة من جديد... فالمرض هو الذي يكشف لنا الطرق الجديدة للتفكير، أي التفكير الذي يتجه من المركز للمحيط"[1]

أعتقد أن هذا النص فيه إشارة إلى أن المركز هو دوما حياة الذات ويبقى العالم الخارجي بمظاهرة مختلفة ماثلا أمامها كما يتراءى لنا، وهذا ما يجعل المرضكحالة ضعف سببا قويا للتفكير بطريقة جديدة بالاتجاه نحو كل ما يحيط بالذات بحثا عن كيفية تجاوز التوازن المفقود لهذه الذات المريضة فالصحة هي بمثابة الاكتشاف الجديد للذات.

ولعل نيتشه يؤكد دائما على إرادة القوة، لأنه يعتقد أن الحياة لا تستقيم إلا بممارسة الإرادة وهي إرادة قوة[2]، وقد خصص فوكو واحدا من دروس كوليج دي فرانس 1978–1979 م لمولد السياسة الحيوية، وهي تلك الطريقة المستعملة منذ القرن الثامن عشر في محاولة عقلنة المسائل المطروحة على الممارسة الحكومية والمتعلقة بالظواهر الخاصة بمجموعة من الأحياء الذين يؤلفون جملة السكان: الصحة، نسبة المواليد، طول العمر، الأجناس ... "[3]

من خلال هذا القول؛ ندرك أن الصحة لم تعد شأن فردي يشرف عليه الفرد نفسه، وإنما صارت شأن حكومي يعطي للدولة حق التصرف في شؤون صحة السكان وتوجيهها وفق سياسة مدروسة لها أهدافها وغاياتها التي تجعل من الدولة في تسييرها للشأن الصحي تراعي جملة من

[1]–عبد السلام علي جعفر صفاء، **محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه**، (د.ط؛ مصر: دار المعرفة الجامعية السويس، 1999)، ص29.

[2]– نبيهة قادة، **الفلسفة والتأويل**، (ط1، بيروت، دار الطبيعة للطباعة والنشر،1998)، ص 30.

[3]– ميشال فوكو، **دروس ميشال فوكو**، تر، محمد ميلاد، (ط1؛ الدار البيضاء: دار توبقال للنشر،1994)، ص 59.

المصالح وعلى رأسها التحكم في التكلفة الأقل في المجال الصحي، تبعا لما يعود بأرباح أكبر وإنتاج أوفر، ومنه يبدأ الطب يأخذ طريقه للتطور من خلال إعادة تنظيم المدارس والمستشفيات من خلال استعمال مناهج التحليل والفحص استنادا إلى قول " بيار فرانسوا أوليفيرايير" : " بدأ عصر جديد بالكامل بالنسبة إلى الطب في فرنسا ... فالتحليل المطبق على دراسة الظواهر الفيزيولوجية، والنظرة المتطورة تجاه كتابات العصور القديمة، واتحاد الطب مع الجراحة, وتنظيم المدارس السريرية، قد أحدثت (جميعها) هذه الثورة المذهلة التي تتصف بالتقدم في التشريح المرضي "[1].

ومنه ندرك الجهود الكبيرة التي تقوم بها الدولة الليبرالية في تطوير الطب وطرق التحليل المستعملة في دراسة الظواهر الفيزيولوجية والمرضية وكذا إتحاد الطب مع الجراحة لتوسيع طرق الكشف عن المرض، ومحاولة تجاوز العقبات القديمة التي كان تشريح المريض تحت طائلة أسباب دينية وأخرى أخلاقية شكلت أحكام مسبقة، صارت عائقا ابستيمولوجيا، أطر عدة تجارب وأعمال طبية إلى قرون أخرى، وقد كان فوكو يستشهد ب" فالسافا" (valsava) الذي في مطلع النهار، وفي مقدم الليل " يتسلل خلسة إلى المقابر كي يدرس على مهل كيف تتقدم الحياة ويحصل الهلاك[2].

وفي ظل هذه المتغيرات التاريخية يذكرنا فوكو بالمادة 25 من مرسوم مارلي " يطلب فيها إلى القضاة وإلى مديري المستشفيات أن يمنحوا الأساتذة الجثث كي يبينوا الدلائل التشريحية ويعلموا العمليات الجراحية "[3].

هذا ما جعل القرن الثامن في مجال الطب والصحة يتجاوز العقبات وما كان يعتبر انتهاكًا لقداسة الجسد تحت مسميات كثيرة صار ممكنا في وضح النهار بعيدا عن أي قداسة، ليفتح الباب للتنوير وصار الانشغال بفهم الحي يقتضي الحاجة إلى معرفة الميت سواء لأسباب علمية أو

[1]– ميشال فوكو، **ولادة الطب السريري**، مصدر سابق، ص 179.

[2]– ميشال فوكو، **ولادة الطب السريري**، مصدر سابق، ص 179.

[3]– المصدر نفسه، ص 180.

جنائية. لتصبح الجثة جزءا من الحقل الطبي. هذه الجولة العلمية في الفكر الحيوي عند فوكو دفعتنا إلى القول: أنه أعطي عناية خاصة لهذا النوع من التفكير محاولا الإشارة إلى الظروف الإبستيمية التي ساهمت في تطور هذا الفكر الحيوي والتي انطلقت بالدرجة الأولى من المصلحة السياسية للدولة التي وجدت في الطب الأداة الطبية لاستمرار سلطتها بشكل جديد وبصورة مقنعة تجعل السكان أو الأفراد يذعنون لها بإرادتهم.

خاتمة:

من خلال ما سبق التطرق إليه آنفًا توصلنا في نهاية بحثنا هذا إلى مجموعة من النتائج يمكن حصرها فيما يلي:

– يعتبر فوكو أن السلطة ليست ممركزة في النظام السياسي فقط، بل هي موجودة في مجالات شتى، لأن السلطة يمكن أن تكون سيادية أو تأديبية أو حيوية، فهي نسبية لا تقتصر على الجانب السياسي فحسب، لأن تجلياتها عديدة، وحتى نظرية أركيولوجيا المعرفة بينت أننا لا يجب أن نخضع بالضرورة للحفر في تاريخها وسيرورتها وخلفياتها، وتداعياتها ومن ثم وضعها في سياقها التاريخي وفضائها الإبستيمي، بمعنى أن المعرفة بمختلف أشكالها لا يمكن فصلها عن هذا السياق أو الفضاء التاريخي.

– مهمة فوكو أمام كل أنواع المعارف بما فيها الطب ليست سهلة مباشرة وحتى الفكر الحيوي عنده كان له تأثير بعيد المدى على الطريقة التي نفهم بها مجتمعنا وهياكله العديدة، ولهذا طور فوكو مفهوم القوة والمعرفة للذات لهما تأثير كبير في العديد من مجالات الفكر، مادامت القوة كعنصر أساسي للمعرفة، وهذه الأخيرة هي الوسيلة التي من خلالها يتم التعبير عن السلطة والحفاظ عليها من أجل خدمة مصالح من هم في السلطة، بما فيها المعرفة الطبية التي سيتم استغلالها أيديولوجيا.

– الطب في حد ذاته صار سلطة علمية تتحكم في الشأن الصحي بكل تفاصيله ومراحله من التشخيص إلى العلاج إلى توفير أدوات العلاج ووضع سياسة للأدوية من خلال جهاز إداري

صارم يفرض قانون على كل موظفي الصحة من أطباء وممرضين أو من مستعملين أو مستفيدين من خدمات الصحة، وهذا ما يجعل الممارسات في مجال الصحة تخضع إلى صرامة القوانين التي ستطرح علينا مشكلة العدالة الصحية.

المراجع والمصادر

1- المصادر

أ. باللسان الأجنبي

1- M. Foucault, **naissance de la clinique** ,cérés édition, Tunisie, 1995

ب . باللسان العربي:

2- ميشال فوكو، **يجب الدفاع عن المجتمع**، تر، الزواوي بغورة، ط1؛ بيروت، دار الطليعة، 2003.

3- ميشال فوكو، **إرادة المعرفة**، تر، مطاوع الصفدي، جورج أبي صالح، د.ط؛ بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990.

4- ميشال فوكو ونعوم تشومسكي، **عن الطبيعة الإنسانية، مناظرة حول الطبيعة البشرية**، تر: أمير زكي، ط1؛ القاهرة: دار التنوير للنشر والتوزيع، 2015

5-ميشال فوكو، **ولادة الطب السريري**، تر، إياس حسن، ط1؛ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018

6- ميشال فوكو، **دروس ميشال فوكو**، تر: محمد ميلاد، ط1؛ المغرب: دار توبقال للنشر،1988.

2- المراجع

أ- باللسان الأجنبي

7 - Arterw Frank et Teresjones, **journal of Medical Humanities**, Vol,24 No314, Winter 2005

ب-باللسان العربي

8- نبيهة قادة، **الفلسفة والتأويل**، ط1؛ بيروت، دار الطبيعة للطباعة والنشر،1998.

9- عبد السلام علي جعفر صفاء، **محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه**، د.ط؛ مصر: دار المعرفة الجامعية السويس، 1999.

10- عبدالله السيد ولد أباه، **التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو**، ط1؛ بيروت: دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، 1994.

11- كلود دوبرو، **الممكن والتكنولوجيات الحيوية**، تر ميشال يوسف، ط1؛ بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،2007.